أصول الفكر السوداني

بقلم محمد الملكي ابراهيم

حين دكت ارجال الغزاة امبراطوريات بعانخي وترهاقا ، وحين طمرت رمال الصحراء حضارات نبته ومروى ، كانت الارض السودانية قد فقدت مرة والى الابد لواء المبادرة الحضارية الذي ظلت ترفعه طوال اجيال متلاحقة ، واصبحت مجموعة البشر التي تعمرها يتيمة وضائعة في عالم مطرد التقدم والتمدن متجدد الحضارات . عندئذ لم يكن غريبا ، ان يستورد السودان ، الديانة المسيحية ، وتنهض على اساسها ثلاث دويلات سودانية ، هي علوة والمقرة وسوبا ، وان تظل تلك الدويلات ضعيفة ومتنازعة حتى يكتسحها امامه الغزو العربي الوافد .

لم يكن دفعا مفاجئا او صدمة عارمة ، وانما كان عملية بطيئة صبورة تسير بثبات وتثبت ويقين . فمنذ ٦٤١م كان المد العربي يحفر مجراه في شمال الارض السودانية ، متدفقا نحو الجنوب بسيولة هادئة ومطمئنة . وعبر المعاهدات والهادنات وعمليات التبادل التجاري رسخت القدم العربية وبدأت زحفها الواثق حتى تم لها النصر الكامل على مملكة المقرة في القرن العاشر ، ومملكة علوة في القرن الثالث عشر . وكان المدماك الاخير ، حين هجمت قبائل الفونج المستعربة ، على مملكة سوبا المسيحية فهدمتها واقامت مكانها السلطنة الزرقاء التي استمرت من ١٥٠٠ الى ١٨٢١م .

ان الميلاد الحقيقي للثقافة العربية في السودان ، يبدأ بعهد الفونج ولكن هذا لا يعني ، ان الثقافة العربية لم تدخل السودان الا مع ذلك العهد ، لانه ثابت ان الثقافة العربية اكتسبت مكانها المشروع بين ثقافات السودان ، في طليعة الغزو وليس على اعقابه ، فقد تسربت مع قوافل الحجيج وفي اخراج التجار وحقائب الدعاة والمسافرين . وعلى الدوام كان المسجد يقام والآذان يدوي في ممالك السودان المسيحية لتأتي على صداه جحافل الفتح العربي . بل ان تاريخ الثقافة العربية في السودان يضرب في اعماق التاريخ الى بعد اعمق من ذلك ، فيعود الى ما قبل الاسلام والى ايام الخلفاء الاول ، ولكن تلك البواكير لم تخرج عن مستوى اللقاء العابر الى مجالات التأصل والترسيخ .

في البداية كان هنالك جموع من القبائل العربية المسلمة ، تعايش خليطا من قبائل السودان الحامية والزنجية . وعلى امتداد العصور بدأ العرب الوافدون ، يختلطون بأهل البلاد اما مصاهرة واما استرقاقا . ومن خلال هذه العملية ، ظهر الى الوجود مخلوق جديد هو السوداني الحديث ، الذي لا يشكل دما عربيا خالصا ، او دما زنجيا خالصا ، ولكنه بالتأكيد يجمع في انسجته بين ذينك النوعين من الدماء ويحمل في دماغه نتاج الثقافة الاقوى والاكمل : الثقافة العربية . وعلى حين انه كان مقدورا ان ينقرض العرب الخلص رويدا رويدا ، او يعتصموا بالبوادي بعيدا عن كل تأثر او تأثير ، وان ينعزل الزنوج داخل الغابات الاستوائية ، ويخفت صدى ثقافاتهم الوطنية — في ذلك الحين كان السوداني الجديد يزداد تركزا وتمكينا وتنحاز اليه اعداد هائلة من الوطنيين المستعربين الذين نبذوا دياناتهم الوثنية والمسيحية ليدخلوا الاسلام وتخلوا عن انسابهم الاصيلة مدعين لانفسهم انسابا عربية ربما بدأ عليها طابع المغالاة في معظم الاحوال لاتصالها الدائم بالانبياء وجدود الانبياء وكبار الصحابة .

وفي عهد الفونج ، استقرت السلطة السياسية في البلاد ، في ايدي العناصر المستعربة من الذين ينحدرون من أصول عربية مهجنة او الذين صنعوا لانفسهم ذلك النوع من الانساب . فالفونج انفسهم كانوا على احسن الفروض من المستعربين ، اذ تختلف الروايات حول اصلهم . فمن قائل انهم من الشلك او من تشاد ومن قائل انهم من بقايا الامويين الذين هربوا الى الحبشة من وجه العباسيين . والفور في سلطنة دارفور كانوا من عناصر حامية مستعربة واما حكام مملكة تقلى فكانوا أصلا من قبيلة الجعليين العربية ولكن انسابهم سرعان ما ضاعت اثر اختلاطهم بالوثنيين وبقاياهم اليوم تعرف بالتقلاويين تمييزا لهم عن الجعليين من جهة وعن قبائل جبال النوبة من جهة اخرى . وقد نتج عن تمركز السلطة السياسية في ايدي السودانيين ، ان تجمعت بين ايديهم أعنة القيادة الفكرية والروحية في المجتمع . فظهر فقهاء وشعراء ومتصوفة من صفوف ابناء الامراء والسرارى ، كاسماعيل صاحب الربابة وعبد الله صابوت والشيخ موسى ابو قصة وبان الفقا الضرير . كما ظهر عشرات من العلماء الذين ينتمون الى اصول نوبية مسلمة ، كالدناقلة والمحسن والبجا . وربما كان من المهم تاريخيا ان نقرر أن اسلام السودان وتعريبه لم يتم على أيدي العرب الوافدين وانما على أيدي هؤلاء المستعربين في ظل دولة مستعربة هي دولة الفونج .

والشيء البارز في حيوات هؤلاء القادة وحيوات الاجيال اللاحقة ، هو ما يشبه عقدة عرقية ، فمع تسلسل انسابهم واتصالها بقبائل العرب العريقة ، ألا ان اختلاطهم بالعناصر السودانية افقدهم الكثير — فقد الوافد العربي اهابة الاسمر واكتسب درجات متفاوتة من السواد، وفقد قسماته المميزة او جزءا منها وفقد التصاقه الحميم بأصوله العربية . والى جانب ذلك كان يواجه ما يشبه التحدي ... — بل كان هنالك حقيقة نوع من التحدي الزنجي ، يهدد العناصر العربية بالامتصاص والذوبان . ومن هذين المنبعين جاء ذلك التأكيد الغريب على مسألة العرق ، وما يلتف بها من مسائل لغوية ودينية . فقد كان الوافد العربي يقدر جهله (١) وعجزه عن الصمود امام تيارات التحريف والتأقلم ، ومن ناحية ثانية كان يعي حقيقة انعزاله عن التيارات الحضارية الجديدة او المجددة في الوطن العربي الام . وكنتيجة لذلك، بدأت في السودان وبطريقة جادة عملية ، استيراد واستضافة الفقهاء والعلماء من مختلف البلاد العربية ، واستمرت عبر عصور التاريخ السوداني الحديث وتأصلت كجزء من القاعدة الاخلاقية للشعب ، بحيث أصبح الانسان العادي يتوقع من كل وافد ان يكون الاغزر علما والاوسع معرفة .

من مصر والمغرب والحجاز كان العلماء يفدون الى السودان ، وينزلون ضيوفا مكرمين على سلاطين الفونج والفور ، ويجدون من الشعب الاذن الصاغية ، والتقدير العطوف ، بل آن نوعا من التنافس، بدأ بين الممالك السودانية على استضافة العلماء وتكريمهم وبلغ الامر لدى الملك بادي ابو دقن ملك سنار انه أصبح يبعث بالهدايا الى علماء مصر مع خبيره احمد ولد علوان ويتلقى منهم قصائد شكر ومديح (راجع

---

(١) « ولم تشهر في تلك البلاد — أي سنار — مدرسة علم ولا قرآن . يقال ان الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهاره من غير عدة » . الطبقات ، صفحة ٥ .

مخطوطة كاتب الشونة صفحة ١٠) وعلى كل فان القادة والشعب كانوا يدركون طبيعة الجهل الذي يعيشونه وبالتالي كانوا على اتم الاستعداد للتلقي عن العالم العربي بدون تدقيق او تمحيص مكتفين بالقشور والنفايات وكل ما تطوله اليد . وقد صبغت تلك العقلية كل عصور التاريخ السوداني اللاحقة بطابعها الخاص بحيث اصبح من الممكن ان نزعم ان عهد الفونج كان عهد التلقي بالنسبة للثقافة العربية وعهد التتلمذ على البلاد العربية ـ وعهد الاكتفاء بالقشور الثقافية دون اللباب .

في ذلك العهد، كانت الثقافة العربية قد تعرضت لشتى الضغوط، وخاضت العديد من المعارك ضد الشعوبيين والفرنجة (في الاندلس) والتتار والصليبيين والسلاجقة وانهكت تماما . وعندما بدأ في السودان عهد التلقي ، كانت الثقافة العربية قد غدت مسخا مشوها ، وضاعت اصولها الاصيلة في ضباب الهزائم والمنازعات ، فلم يتلق السودان منها سوى النفايات والقشور لكونها غير قادرة على اعطاء الاكثر والاجمل ، ولم يكن انهاك الثقافة العربية السبب الوحيد وراء تلك الظاهرة ، فقد كان وراءها سبب آخر مهم هو نوعية الرجال الذين حملوها الى السودان ، فهم بلا شك لم يكونوا قادة الفكر والرأي في عصرهم ولا حتى من اشباه القادة ـ كانوا مجرد رجال عاديين على خط من العلم « وان كانوا لا يخلون احيانا من الشعوذة والتهريج » قذفتهم شتى الدوافع الى اصقاع السودان لينشروا العلم احيانا ، وليجمعوا الدنيا باسم العلم في أحيان اخرى .. لقد غادروا اوطانهم ، في ظروف صعبة ، وفي عهد ضاقت فيه ارزاق العلماء والمفكرين ، واقتصرت مجالات الكسب امامهم على وظائف القضاء والافتاء ومشيخة العلماء التي كانت احتكارا للعلماء المتازين ، فخرج رجال الصف الثالث والرابع ، وانبثوا في فجاج الارض بحثا عن الرزق والحرية . ولكن مهما كانت نوعيتهم فان سودان القرنين السادس والسابع عشر ، كان دائما على استعداد للتتلمذ والاصغاء . ففي هذه المرحلة لم يكن السودان يسعى الى العلم ، وانما كان العلم يسعى اليه . وكان السودانيون اعجز من ان يهاجروا الى الازهر او القيروان او مكة ليأخذوا العلم من مناهله نظرا لتخلف اساليب المواصلات وعدم استتباب الامن . وعلى ذلك لم يكن مفتوحا امامهم مجال المفاضلة والاختيار ، بل على العكس ، كان عليهم وفقا لما يشبه التقليد ، ان يتقبلوا كل وافد ، ويأخذوا من كل نبع .

حمل اولئك العلماء الى السودان ، اللغة العربية والفلسفة الصوفية ، بوصفهما المظهرين الاساسيين للفكر في القرنين السادس والسابع عشر . اما العربية التي جاءوا بها فقد كانت لغة منحطة ، وغير صافية ، ومليئة بالتعقيدات والتحريفات ، التي ادخلتها عصور الانحطاط ، بحيث بدت غريبة على آذان الناس . ولم يكن احد في السودان على استعداد لتعلمها على اساس النعرة المتفاخرة التي ما زالت تزعم ان عربية السودان هي اصفى وافصح لهجات المنطقة العربية . وبدلا من تلك اللغة المعقدة ، ازدهرت في السودان لهجته الدارجة الخاصة ، واصبحت لغة الادب والشعر . وتكاد جميع الآثار الادبية التي خلفها عهد الفونج تنتمي الى هذا النوع من الادب الدارج. فأمثال فرح ودتكتوك وحكمه وقولاته الخالدة واشعار اسماعيل صاحب الربابة وابو جروس وودقرشي وود آدم وكتاب الطبقات للفقيه ووضيف الله ، كلها مصوغة في قالب عامي ، احتفظ بسيرورته خلال القرون ، حتى وصل الينا واندرج بلا عنوان في قائمة التراث الشعبي . ولم يخضع الفكر السوداني لتأثير لغة عهود الانحطاط ، الا في العهد التركي حين اصبحت السلطة الحاكمة تتبناها وتتخذها لغة رسمية للمكاتبات والدواوين ، واصبح لها بالتالي أثرها الواضح على المؤلفات السودانية في العهد التركي كما سيأتي .

وبرغم كل هذا ، فان السودانيين اخذوا باللغة الفصيحة ، ومن بعيد احتفظوا لها بأصدق التقدير ، فقد كانوا يعرفون انها لغة الفقه والقرآن والحديث ، وقد قرأوا بها الرسالة ومختصر خليل ومتون الاخضري والاجهوري . ومع انهم احجموا عن تعلمها بصورة جادة الا انهم محضوا احتراما صادقا للرجال الذين تعلموها ، أو بالاحرى ألموا بها الماما طفيفا وسطحيا . ويتجلى هذا الاحترام في كتاب الطبقات بصفة خاصة بحيث يستغرب المرء كيف فات على عالم مثل ود ضيف الله ان يضع يده على الضعف والركاكة في مثل هذا الكلام :

يا معشر الزوار أين مناخكم ... وامامكم سهم القضا وافاه
وامامكم قد صار ذاك مغيرا ... اسف عليه فوا امد حزناه
أسف وأسف ثم أسف ثالث ... أسف وأسف بعده ووراه
أسف عليه دوام دهر دايما ... اسف عليه بكرة ومساه
أسف عليه مدى الزمان وطوله ... أسف عليه فلا عوضا نلقاه
أسف على قمر بدا في ظلمة ... وطرا الكسوف لنوره أغشاه
أسف على الشمس المنيرة شيخنا ... خضر الزمان وغوث ذا قطباه

لان الفقيه ود ضيف الله يقول عن هذه الركاكة المؤسية انها « قصيدة جميلة وفت بالغرض المطلوب وزيادة » .

ويبدو أن اشهر شعراء الفترة واحظاهم بالقبول هو عبد النور بن ابيض والذي كثيرا ما يشار اليه بعبد النور الشاعر مما يدل على اتساع نطاق شهرته كشاعر . وفي ترجمته القصيرة يقول صاحب الطبقات : « كان شاعرا ماهرا يمدح الرسول عليه افضل الصلاة والسلام ويمدح شيوخه العركيين » . وههنا مثال لمهارته في مدح احد اشياخه:

تخلف بعده الحبر المسمى ... بدفع الله من اسد شبول
وفي العصر الذي قد حل فيه ... جميع العارفين له ذيول
أطاعته العساكر والاكابر ... وكم زاروه أقطاب حجول
ولا يلد الاسد الا مثيله ... ولا يلد البقر الا العجول
ولا يلد النخل الا لقاحا ... ولا يلد النحل الا العسول
واولاده كلهم صالحون ... بيض الوجوه أهل الفضول

وقراءة النماذج القليلة التي وصلتنا من شعر الشيخ محمد ود هدوي والفقيه على الشافعي والشيخ ود عبد الهادي والسيد ود دوليب ومكي الدقلاشي ـ قراءة هذه النماذج كفيلة بأن تؤكد لنا ، أن السودان لم يأبه كثيرا لاساليب التعبير التي خلقها عهد الاتراك في الشرق الاسلامي ، واعتمد بدلا من ذلك لهجته الخاصة متخذا منها لغة أدب وعلم ، حتى جاء العهد التركي في السودان ووضع حدا لذلك الموقف اللامبالي . ولكننا نلمح في اواخر عهد الفونج بدايات التلقي الصحيح بالنسبة للغة العربية ، وذلك بعد ان اسهمت رحلات الرحالة الاوروبيين في تعريف العالم بالسودان ، وبعد ان تيسرت سبل الاتصال بمصر وبدأت اطماع ولاتها تتجه نحو الجنوب . عندئذ نجد لدى الشعراء عناية اوفى بلغتهم واوزانهم واعاريضهم وتفهما واعيا ـ وان لم يكن كاملا ـ لحقيقة الفرق بين اللغة الفصحى واللهجات المحكية ، فنراهم يتعاملون مع الفصحى كلغة مناسبات وطقوس ومراسيم ، ولا يلجأون اليها الا في مواقف بذاتها . ومع أن شعرهم صار فصيحا واستقام الا انه بقي تقليديا ومهزوزا واغراضه تكاد تكون منحصرة في الرثاء .

وهذه القصيدة التي اوردها كاتب الشونة (ص ٨٠) لشاعر مجهول في رثاء عهد الفونج تكاد تمثل اسنى قمة لغوية استطاع ذلك العهد ان يصلها قبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة :

ارى لدهري اقبالا وادبارا ... فكل حين يرى للمرء أخبارا
يوما يريه من الافراح اكملها ... يوما يريه من الاحزان اكدارا
وكل شيء اذا ما تم غايته ... أبصرت نقصا به في الحال اجهارا
... ...
آه على زمن قد كان في طرب ... كنا بجمع مع الاحباب سمارا
آه على بلدة الخيرات منشئنا ... اعني بذلك دار الفنج سنارا
آه عليها وآه من مصيبتها ... لم نسلها اينما حللنا أقطارا
فأوحشت بعد ذاك الانس وارتحلت ... عنها الاماثل بدوانا وحضارا
وصار عمرانها المحسون مندرسا ... يصيح بوم به في الليل صرارا

اضحت تعاينها من بعد بهجتها ... كانها لم تذق للخير آثارا
وأبدلت دولة الاعزاز من همج ... كانهم لم يكونوا الدهر اوزارا
... ...
كانوا كراما باحسان ومرحمة ... كانوا ملوكا واشياخا واوزارا
كانوا ليوثا وابطالا مجربة ... كانوا تجارا واشماسا واقمارا
فلو رأيت بهم ما حل من ضرر ... أجريت دمعك اعلانا واسرارا
ائمة الدين يا هذا لهم شرف ... ففيهم حكموا الرصاص والنارا
... ...
تبكي محاكمهم تبكي مدارسهم ... تبكي مفاخرهم تنبيك اخبارا
تبكي مدائنهم تبكي مواطنهم ... تبكي القبائل بدوانا وحضارا
على كرام يزين الدهر مجدهم ... على ديار عليها الدهر قد جارا
فكل شخص وان طال الزمان له ... فقد يكون على الاجداث زوارا

وفي اخريات عهد الفونج ايضا ، يظهر الشاعر الفقيه ابراهيم عبد الدافع الذي يمكن اعتباره مخضرما لانه عاش الى العهد التركي ، ولكن مصادر ثقافته الاساسية تنتمي الى عهد الفونج . وقد افتتح حياته في عهد الاتراك بمناوأة السلطة ، حتى انتهى بهم الامر الى عزله ونفيه الى ليمان طرة بمصر . ولولا هذه النهاية الفاجعة لكان له في عهدهم شان اي شان . ومع ان الآثار التي تركها قليلة (خمس قصائد في مخطوطة كاتب الشونة وبضع قصائد يرويها نعوم شقير) الا ان شعره يمثل درجة من الجزالة والتماسك لم يستطع العهد التركي بلوغها ، حتى نهاية ايامه على ارض السودان . ونراه في اشعاره القليلة التي وصلتنا متحسرا على دولة الفونج ، وساخطا على العهد الجديد . فبينما يرثي بعض العلماء في هذه القصيدة يثب فجاة ليهاجم الطغيان التركي :

اليوم اصبح ركن الدين منهدما ... بموت اخواننا في الله والعلما
واظلمت ارضنا حقا وقد خمدت ... نار الكتاب وضاع العلم وانعدما
... ...
واختل ما كان موجودا بقريتنا ... من السرور واضحى الآن منفصما
ديارنا بعدما كانت معمرة ... منهم غدت مسكن الطاغين والظلما
كنا زمانا يجينا الركب من بعد ... الى العلوم وللقرآن والحكما
صرنا طعاما بلا ملح يلذ به ... تعافه أعين الرائي ومن طعما

ورجل هذه حاله كان لا بد ان يصطدم بالسلطة في عصره ويضع السجن نهاية مفاجئة لحياته الادبية ، التي كان يتوقع منها الكثير ، ولكنه حتى في السجن ظل يكتب شعرا صوفيا فيه توسل الى الله بانبيائه واوليائه ، وقد اكتسب شعره سيرورة فريدة ، واصبح جزءا من اوراد اهل الذكر في السودان .

ان شعر الفقيه ابراهيم عبد الدافع ورصفائه من مثقفي اواخر عهد الفونج ، يمثل قمة لم يتطاول اليها عهد الاتراك ، بل ان هذا العهد الاخير ، يكاد يمثل انتكاسة الى الوراء بالنسبة لعهد الفونج ، اذ انه ادخل على الادب السوداني تقاليد الادب المملوكي المليء بالبلاغيات والمحسنات ، على حين ان الشعر على عهد الفونج كان يحاول الاقتراب دائما من شعر المتقدمين ، وكلما مضى الزمن كلما قصرت المسافة بينهما كما هو واضح من شعر الايام الاخيرة .

***

والشيء الثاني الذي حمله العلماء الوافدون الى السودان هو التصوف .

وقد يبدو الامر غير ذي بال ، لان المنطقة العربية بطولها وعرضها خضعت ذات يوم للتأثير الصوفي . ولكن الامر يتخذ شكلا اشد خطورة بالنسبة للسودان ، فقد دخله التصوف ، في ذات الوقت الذي بدأ فيه الدين الاسلامي يكتسح الديانات الوثنية والمسيحية من بين القبائل السودانية . وامتزج الاسلام بالصوفية بحيث اختلط الاثنان في أذهان الناس واصبحت الصوفية تعني الاسلام . واصبح الدخول في الاسلام يعني اختيار طريقة من الطرق الصوفية . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، كان انتشار الصوفية في السودان اوسع منه في أي مكان آخر . فقد كان الوتر الافريقي في العقلية السودانية يستجيب للصوفية بأذكارها واناشيدها وجوها المسحور . وقد ظلت الصوفية تحكم البلاد وتوجه اقدارها منذ القرن السادس عشر حتى سنوات ما بعد الاستقلال . ولم يبدأ ظلها بالتقلص الا في المدن الكبيرة وعقب الحملات الواسعة التي شنها المثقفون وانصار السنة . ومن ناحية ثالثة كان تيار الثقافة الفقهية في السودان من الضعف بحيث لم يستطع الصمود امام بدع الصوفية (٢) وغيبياتها فانتشرت بلا مقاومة في ميدان مفتوح . وارض ممهدة . وايا كان الامر ، فقد أفلحت خمسة قرون من التصوف في طبع الفكر السوداني بطابع غير علماني ، ما زلنا نجد رواسبه في اكثر من مجال . فهو المسؤول عن عدم احتفاء الفكر السوداني بالبحث العلمي ، وهو المسؤول عن ظاهرة قصر النفس الكتابي والخطابي لدى أجيال السودانيين ، وهو المسؤول عن معظم مظاهر الحياة الاخلاقية كالقناعة والزهد والعزوف عن طيبات العالم . ولربما كان هو المسؤول ايضا عن قلة الملاهي والمتنزهات في المدينة السودانية المعاصرة .

وكما هو الحال مع كل مظاهر الثقافة في السودان ، لم يتحرك الناس صوب الصوفية وانما هي التي سعت اليهم وافدة من الشام والمغرب والحجاز . وفي بلاد كالسودان خالية تماما من معاهد العلم والمعرفة ، لم يكن بد من تقبل التيار الوافد ـ ليس على اساس انه الافضل او الاجمل وانما على اساس انه الوحيد .. وحتى عندما عرف الناس أن هنالك مناهج دينية غير المنهج الصوفي ، فانهم لم يبدوا لها أي حماس . اولا لان مناهلها بعيدة المنال محفوفة بالخطر وتستلزم الهجرة الطويلة ـ مسافة وزمانا ـ الى معاهد الازهر والقيروان . وثانيا لانها تستلزم جهدا اكبر في الدرس والتحصيل في حين أن بلوغ درجة الولاية في الصوفية لا يحتاج الى اكثر من الاخلاص وتنقية النفس وانتظار الفيض (٣) . لقد كان المنهج الصوفي حلا ناجعا لمتناقضات رجل الدين في ذلك العهد . وفي السودان بالذات تمت على مراحل متفاوتة تجربة أن يعيش رجل الدين حياة دنيوية متكاملة الابعاد دون ان يتعرض للوم أو انتقاص وتفسر تصرفاته بكونها حالة جذب او شطح او غيرها من حالات الصوفية . ويخبرنا كتاب طبقات الاولياء ان كثيرا من المتصوفة لبسوا الحرير وناموا على الريش واكثروا من الزوجات والسراري ولم يتعرضوا مع ذلك للوم او تثريب وعلى العكس من ذلك

ـ التتمة على الصفحة ٥١ ـ

(٢) « وذلك ان الشيخ محمد الهميم في حالة الجذب الالهي زاد في نكاحه من النساء على المقدار الشرعي وهو اربع وجمع بين بنات الشيخ بان النقا الضرير كلثوم وخادم الله فانكر عليه القاضي دشين حين قدم الشيخ الهميم اربجي وحضر صلاة الجمعة باربجي فلما اراد الخروج من الجامع قبض دشين لجام الفرس وقال اخمست وسدست وسبعت ما كفاك حتى جمعت بين الاختين فقال له ما تريد قال اريد ان افسخ نكاحك لانك خالفت كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم . فقال الرسول اذن لي والشيخ ادريس ببعلم وكان الشيخ ادريس حاضرا فقال لدشين اترك امره وخل ما بينه وبين ربه فقال دشين ما يهمك امره وقد فسخت نكاحه ، فقال الشيخ الهميم لدشين فسخ الله جلدك فيقال انه مرض مرضا شديدا حتى انفسخ جلده ». طبقات ، ص ٩٠.

(٣) فمثلا كان ابو القاسم الجنيد بن علي النيل اميا لم يخط ولم يقرأ وكذلك عووضة شكال القارح ومحمد الهميم بن عبد الصادق كان اميا لم يقرأ الا من الناس الى الزلزلة وحتى حسن ود حسونة كان منهما في معرفته بالقرآن (طبقات ، ص ٥٠) . وهؤلاء الاميون او المشكوك في علمهم كانوا اكابر اولياء الله في زمانهم ولا زال لهم اتباع ومريدون .

اصول الفكر السوداني

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٧ ـ

كان هذا السلوك مفهوما ومبررا لدى العامة والخواص .

وعلى كل فان ما تلقاه السودان من مبادىء التصوف ، لم يكن اكثر من قشور وتسميات فرغم انتشار الصوفية الواسع ، لم يظهر طوال عهد الفونج صوفي واحد ، يتفهم روح التصوف الاصيلة ويقرأ كتبه الاساسية ، ويعمل وفق فلسفته ـ لقد عجزوا عن تفهم أهم ركنين من اركان التصوف الاسلامي ، وهما الحب الالهي ووحدة الوجود (٤) ، واستعاضوا عنهما بمظاهر تقليدية وسطحية للحب النبوي . ان السمة الاساسية لعصر الفونج هي سمة الاكتفاء بتلقي القشور الثقافية ولكنه يظل عصرا اصيلا ومبدعا من حيث انه قام بملء الفراغات وسد الثغرات، واضاف من عنده الى اللغة العربية والديانة الاسلامية ، بحيث بدأ في الظهور وجه متميز القسمات لسودان القرنين السادس والسابع عشر . وبعكسه يبدو العصر التركي الذي تلاه عصرا مقلدا وغير أصيل فقد كان مثقفوه يرون من ثقافة الانحطاط التركي غاية الكمال ونهاية الابداع ، وقصروا طاقاتهم في ترسم آثارها ، في كل مظاهر الحياة الثقافية .

***

بدأ الغزو التركي عام ١٨٢١ وتداعت امامه بسرعة فائقة كميات الدويلات التي كانت تعمر الارض السودانية بما فيها مملكة الفونج التي كانت قد شاخت وتسوست واستنفدت طاقتها في منازعات عديمة المعنى . ومع ان الغزو التركي انتصر بسرعة الا انه تعرض لمقاومة باسلة واسطورية من القبائل السودانية التي كانت تواجه بالسيف والرمح سلاحا ناريا لم يسبق لها مجرد السماع به وتقاوم بأعدادها القبلية الصغيرة جيشا منظما (وبمقاييس عصره) حديثا . وقد استمر الحكم التركي ستين عاما ، لم تفلح في اقناع الشعب ، بأنه مهزوم ، وان اسيادا يتسلطون على اقداره ومصائره ، فقد ظل على الدوام ساخطا ومتحفزا ، ومتعاليا على حكامه المستبدين . وظلت الجماهير تمارس نشاطها الثقافي الموروث دون ان تتأثر كثيرا بالغزو ، فبقي الشعر الشعبي سودانيا صميما ، وظل القصص الشعبي متحررا من التأثير ، وظلت الصوفية تمارس لدى اتباعها على نفس المستوى القديم .

ومع فشل الثقافة التركية في التغلغل في اوساط الشعب ، الا انها اكتسبت ارضها الخصبة في القطاع المثقف ، اذ سرعان ما التف حولها صفوة من المتنورين اصبحوا حملتها والناطقين باسمها والمتكفلين ببثها بين الناس ، وبحركة من القمة ثم تغيير في الولاء الثقافي ، فنبذت تقاليد العهد الفونجي ، لتحل محلها تقاليد ثقافية جديدة تركية الاساس ، ولكنها سودانية الصنعة . وشجبت بضربة واحدة اساليب التلمذ القديمة ، لتخلفها الاساليب الجديدة الوافدة ، فأصبحت مصادر العلم تتدرج من حلقات العلم التي يعقدها العلماء في منازلهم الى المدارس التي فتحت (ثم اغلقت) الى الازهر الشريف . وعبر هذه السلسلة المتفرعة ، استطاع قدر محدود من العلم والثقافة ان يجد طريقه الى السودان . فقد اصبح السفر الى الازهر سهلا وميسورا . واصبح التعليم نفسه مورد رزق للمتعلمين . وصار للطلاب السودانيين اروقة في الازهر تجري لهم الجرايات وتلطف عليهم حياة المجاورة وتسهل لهم سبل المعرفة . وعن طريق هذه النافذة الجديدة ، استطاع السودان لاول مرة ، ان يقيم جسرا ثقافيا بينه وبين منابع الثقافة الاسلامية ، فكثر العلماء ، وتوفرت الكتب ، وعندما بدأت الصحافة في العالم العربي تردد صداها في اوساط السودان العلمية ، ولم يتأخر الادباء والعلماء السودانيون عن مراسلتها والكتابة فيها .

ان نشوء هذا الاتصال الثقافي ، تكفل بفتح اعين السودانيين على حقيقة موقفهم من الثقافة العربية ، خلال الثلاثة قرون السابقة ، فنتج عن ذلك ان تزعزع اليقين القديم ، الذي كان يستنيم اليه المثقف السوداني ، وبدأ يدرك ان الشقة قد بعدت بينه وبين الاصول العربية فاكتشف ان اللغة التي كان يكتبها اسلافه في عهد الفونج لم تكن سوى صورة شائهة ومحرفة للعربية الفصيحة ، وان التصوف الذي كانوا يتباهون به ويدعون فيه اعلى الدرجات لم يكن سوى مظهر أجوف ومنحول ، وان المعرفة الواسعة بالفقه والشريعة لم تكن اكثر من مجرد ادعاء مفضوح . وعن هذا الوعي الجديد بالتخلف الثقافي ، نتج لدى اجيال السودانيين نوع من الحساسية المتهمة تجاه كل ما هو عربي واسلامي ـ نوع من الحساسية التي تحبس صاحبها في قفص اتهام وتلزمه بالمبادرة الى اتخاذ موقف الدفاع أما بالمباهاة الفارغة واما بمحاولة التقعر . وبالفعل بدأ مثقفو تلك الفترة ، يعملون بجهد فائق لردم الهوة الواسعة التي تفصلهم عن العالم العربي ، فظهر شعراء وناثرون يكتبون بالعربية الفصحى ، وبرز متصوفة يعرفون الغزالي وابن عربي والحلاج وظهر فقهاء ازهريون برعوا في مسائل الشرع والفقه .

على مستوى التصوف كان شيوخ الصوفية السودانيون ، يدعون لانفسهم اعلى درجات الفوتية والكوفية والقطبية ، ويجارون بحماس فائق مؤلفات كبار المتصوفة في العالم الاسلامي ، فنجد السيد محمد عثمان الميرغني والشيخ اسماعيل الولي يضعان ـ بالتعاقب ـ (الاسرار الربانية في مولد اشرف الخلائق الانسانية) و (الواردات الملتمسة من الحضرة المقدسة) على غرار مولد البرزنجي . ونجد شعراء الاماديح النبوية يصنفون دواوين (النور البراق في مدح النبي المصداق) و (رياض المديح) و (روض الصفا في مديح المصطفى) و (الجواهر الزكية في مدح خير البرية) مجاراة للبرعي ، كما نجد عشرات من دواوين الشطحات والغزل الصوفي على نهج النابلسي وابن الفارض . ومع ان كل هذه الاعمال محشودة بالتأثرات ، ولا تخرج عن كونها تقليدا ومجاراة لمؤلفات قديمة ، الا انها تصدر عن جو من التباهي والادعاء والتعالي النابع من احساس دفين بالانهام . ويتأكد لدينا هذا الاحساس اكثر فاكثر حين نقرأ دواوين الشطحات بالذات ، ففيها نلتقي بنوع من الشعر هو في الحقيقة قصائد فخر متوالية ، تتركز في الزهو بما للكاتب من مكانة عند الله ورسوله وما يحظى به من تقديم واكبار في الحضرة الالهية ، وتفوق على دصفائه من الاولياء والمحبين . (٥)

وعلى كل فان هذا الجو لم يكن منفرا بالنسبة لجماهير المريدين والاتباع بل كان ادعى الى التفافهم حول شيوخهم واعتزازهم بعلو مكانتهم وكراماتهم وانقيادهم اليهم انقيادا لا يعرف التحرز ولا خطوط الرجعة . وبفضل هذا التلاحم الوثيق بينهم وبين الجماهير استطاع المتصوفة المحليون ان يحدوا من توغل الطرائق الصوفية الجديدة التي مهد لها الاتراك وشايعوها وحاولوا بثها بين الناس . وكان الى جانب هذا عامل مساعد هو واقعة ان الشعب ظل منذ البداية في حالة استخفاف ورفض للاستعمار التركي بمختلف مظاهره بما في ذلك المظهر الثقافي وربما كان عزوف الجماهير عن الطرق الصوفية الوافدة تعبيرا غير مباشر عن رفضها السياسي للحكام الوافدين ونقمتها على النظام القائم . ولكن ـ كيفما كان الامر لا يسعنا الا ان نؤكد ان هزيمة

---

(٤) يشذ عن هذه القاعدة صوفي واحد هو السيد الشيخ احمد الطيب بن البشير مؤلف كتاب الحكم المسمى بالجوهر الفريد في علم الوحدة والتوحيد . والكتاب يعرض في معظم فصوله لنظرية وحدة الوجود ولكن بطريقة يغلب عليها الاستشهاد والاقتباس بحيث تبدو اشبه بالمختارات .

(٥) يقول الشيخ اسماعيل الولي :

انا سلطان أهل العشق جمعا سمير الحضرتين بلا اختلال

وهكذا يأخذ بقوة البطش والاقتدار ما اخذه ابن الفارض باصطلاح عصره وتواضع الناس حين اطلقوا عليه لقب سلطان العاشقين .

الصوفية الوافدة لم تأت على أيدي الأولياء المحليين لان هؤلاء كانوا ابرع فكرا وأوفر أصالة وانما لانهم كانوا بارعين في التقليد والصنعة والنقل عن نفس المتصوفة المهزومين بحيث أفلحوا في استبدال صوفية عهود الانحطاط بنسخة سودانية وطبق الاصل من صوفية عهود الانحطاط . ان الامر لا يعزى الى اصالة في التفكير بقدر ما يعزى الى مهارة في التقليد فالصوفية السودانية عجزت تماما عن اضافة اي جديد الى التصوف الاسلامي وظلت طوال العهد التركي نسخة مكررة للتصوف خارج السودان وظلت بدع العهد التركي مثلا اعلى احتذاه السودانيون منذ ١٨٢١ والى سنوات كثيرة لاحقة .

أما في مجال اللغة ، فقد وعى المثقفون السودانيون اخيرا ، حقيقة الفرق بين اللغة الفصيحة ولهجتهم المحلية ، فعرفوا ان العصر لم يعد يسمح ، باستعمال اللهجة الدارجة في المؤلفات والمكاتبات والفتاوى ، وان العصر يعتبر مجرد المعرفة باصول اللغة وقواعدها نوعا من العلم والثقافة ، وانتصارا يغني عن الكثير ، فضلا عن ان التقاء اللهجة السودانية الدارجة بالاذن المصرية والاذن التركية المتمصرة اثبت ان تلك اللهجة ليست دائما مفهومة ، وبالتالي لا تصلح لمخاطبة الاذن الاجنبية التي كانت تنصت بامعان . وكاستجابة لهذه التحديات وجد مثقفو الفترة انفسهم داخل سباق لاهث وسريع على الالمام باصول اللغة ولاثبات تفوقهم في ذلك المجال ، وكنتيجة اولى لهذا السباق اكتسب السودان عقلية الاجنبي على اللغة

Mentality of the lingual foreigner

فاصبح يحس بغربته تجاه اللغة ويضع نفسه على الدوام في موقف المتعلم وليس موقف المبدع . وككل اجنبي اللسان وضع حدا لحريته في الابتكار والتعديل وشرع في التعامل مع القاموس وقد تبع ذلك ان توقفت المجهودات الباكرة التي استهدفت تطويع اللغة وحلت محلها ظاهرة التعامل المباشر مع القاموس .

ان هذه الظاهرة هي المسئولة عن ذلك النقاء الذي تفتخر به لهجتنا المحلية المليئة بالتسميات القاموسية لمظاهر البيئة والحياة وهي بنفس الوقت مسئولة عن فقر تلك اللهجة في المصطلحات والامثال واكلشيهات التعبير اذا ما قورنت باللهجات العربية الاخرى التي لم يغلها من النمو الخوف من الخطأ أو اللجوء الدائم الى القاموس . لقد تعاملت الشعوب العربية مع اللغة بحرية وافلحت في نحت بلاغة جديدة وكلمات جديدة من جسم اللغة الحي . أما في السودان فقد تدخلت تلك الحساسية المتهمة لتعوق نمو اللغة المحكية وتمنع عبقرية الشعب وطاقات ابداعه من الانطلاق وجعلته في حالة عبودية مستديمة للقاموس . ليس هذا فحسب بل أن الاوراد والاذكار الصوفية التي كان المتصوفة يلقنونها للشعب اسهمت بدورها الكبير في ربط الشعب باللغة الفصيحة وتزويده بمفرداتها وتعابيرها . وفي العهود التالية يبدو اثر هذا الوضع بصورة مبالغ فيها لدى بعض المثقفين السودانيين الذين راحوا يلهثون وراء اللغة لاثبات معرفتهم بها بحيث دخلوا في معاضلات وشنشنات ، وعن قصد وتعمد لجأوا الى الاغراب والتغريب ووضعت مؤلفات عن اللهجة السودانية الغرض منها اثبات عروبة اللسان السوداني ، وكانت النتيجة النهائية لهذا الوضع ان الكاتب السوداني أصبح صيدا سهلا لسحر اللغة بحيث يكبو ويضيق نفسه بعد مشوار قصير على الورق .

وقد يبدو هذا الجوع الملهوف الى اثبات عروبة اللسان السوداني رد فعل اقوى من اللازم لتحديات طفيفة وعارضة ، ولكن طبيعة الاستعمار التركي كفيلة بتفسير تلك الاستجابة القوية . فقد كان حكم الاتراك انكارا صريحا لعروبة السودان واسلامه وكان السوداني بنظرهم عبدا رقيقا ووحشا متبربرا وليس عربيا بحال من الاحوال ، فضلا عن ان العربي الصريح نفسه لم يكن شيئا ذا بال في نظرهم . وحتى عندما يتعلم السوداني ويتثقف ويقف نـدا لابرع المتعالمين والمتشاعرين (٦) في عصره فانه لا يثير لديهم الاعجاب او الاحترام بقدر ما يثير الدهشة والاستكثار ـ انظر الى هذه الدهشة غير المهذبة التي ابدتها صحيفة « الوقائع المصرية » امام قصيدة للشيخ الامين الضرير : ـ « ولعمري ان كل ذي لب يستكثر من اولئك ـ اي السودانيين ـ ذلك وننشره للوقوف على حقيقة الدرجة التي هنالك والتشويق الى الزيادة من الافادة والاستفادة ولقد ترد علينا اناس منهم مشغولون بالعلم بالازهر المعمور هم في غاية التهذيب والنجابة والاستقامة في كل الامور تحسبهم لولا انهم كلهم خيلان من خطط الامصار لا السودان . وبالجملة فالواجب نشر مآثرهم بلغت ما بلغت شكرا على تناسي بربرتهم التي لفت في هذه الاوقات الحالية بالهمة الخديوية العالية » .

وامام عين ناقدة ومستكثرة كهذه يبدو سلوك السودانيين مبررا ومعقولا بصفته رفضا للاستهانة والاستخفاف اللذين قوبلوا بهما من جانب السلطة ، فضلا عن أن هذا الموقف كان نوعا من الحماية للسودانيين من الاسترقاق الذي كان على رأس دوافع الغزو التركي. ولم يكن للسوداني من عاصم منه سوى اثبات عروبته واسلامه . وعلى كل فان هذا الوضع المعقد لم ينتج الا فكرا معقدا وعقدا فكرية فاصبح مجرد الكتابة باللغة الفصيحة انجازا بذاته ولذاته . واصبح تعلمها امرا يرتفع بالمرء الى عداد الصفوة المثقفة ويضعه في عداد المتعلمين. فنشأ عن هذا ان انصرف السودانيون عن الكتابة الجادة المطولة مكتفين بالنزر اليسير الذي يثبت لهم هذا الانجاز ، واتخذ ذلك النزر اليسير في معظم الاحوال طابعا شعريا خاصة وأن العصر التركي كان يحتفل احتفالا شديدا بالزركشة والصناعة في الشعر ، فاصبح الشعر مجالا طيبا للسفسطة والنكات البلاغية والبديع . والآثار الشعرية التي حلفها العهد التركي في السودان تحمل ميسم عصرها بتلذذ مطاوع فتكتظ بالاستعارات :

الود مأدبة والصدق اخوان والصادقون لدى الآداب اخوان

والجناسات :

اشعارهم ذات اشعار بحالهم فهي الشعار حظوا بالوصل أو بانوا

والتضمين :

حتى نقول على عكس الذي زعموا من ساءه زمن سرته ازمان
هذا وجودهما مستعبد بشرا اذ طالما استعبد الانسان احسان

وتنتهي دائما بالتأريخ على حساب الحروف الابجدية :

لذاك حسن ختام القول ارخه صون المواطن توفيق وعرفان
١٤٦ ١٣٧ ٥٩٦ ٤٠٧
سنة ١٢٨٦ هـ

وبهذه الصورة لا يضع العهد التركي بين أيدينا الا شعرا تقليديا باهتا محصور الاغراض بحيث يتساءل المرء ما اذا كان الشعراء في ذلك العهد يملكون قلوبا ويحسون عواطف ، فالتكلف في اشعارهم ظاهر والتقليد مفضوح . ولعل التكلف النابع من التقليد لم يبلغ باحد الناس ما بلغه لدى صاحب هذه القصيدة الذي يروي كاتب الشونة انه احد الاخوان الاحباب وانه زاره فلم يجده فتحركت قريحته وبعث بهذه الابيات :

سلام على الخل المهذب رأيه كريم السجايا مستنير السراير

---

(٦) افلح بعض مثقفي الفترة في بلوغ هذا المستوى ، فالشيخ الامين الضرير كوفىء على قصيدته المذكورة هنا من لدن الخديو اسماعيل بتعيينه رئيسا ومميزا لعلماء السودان ، والشيخ يحيى السلاوي كتب بتكليف من احمد عرابي قصيدة عن الثورة العرابية « طبعت بماء الذهب وبيعت في شوارع القاهرة كل نسخة منها بجنيه ذهبا » والشيخ عمر الازهري فاز بجائزة مجلة الجوائب المصرية عن قصيدته :

سلوا عن فؤادي مسبلات الذوائب فقد ضاع من بين القلوب الذوائب

(راجع نفثات اليراع لمحمد عبد الرحيم ص ٨١،٨٣،٨٤ .)

فما سرني لا والذي فطر السما غيابك عن تلك الديار العوامر
ضربت خليلي في سويداي خيمة وبت مقيما في خدود نواضر
وهذا مراد الله قد حال بيننا فما حيلتي في دفع مقدور قادر
ولست ملوما في اشتكائي هجركم وان كنت انت الي لست بعاذر
بذلك اهل الحب عادتهم جرت وان كان وجه الحب بين النواظر
شذا المسك والكافور يدريك حالهم يشم لذات البعد لا للحواضر
سألتك احمد ان تحيوا قتيلكم بوصل عسى ان تطف نار الضمائر
فرؤياكم بالعين يشفي لعلتي ويطرد عن عيني الدموع القواطر

فقد ذهب الرجل في تقليد شعر الغزل حتى قال ما لا يقال في مجال التراسل بين الرجال وما كان اغناه عن البكاء والعويل وتشكي الهجر والغرام والمسألة بعد لم تخرج عن زيارة لصديق غائب .

ومهما يكن فان ما خلفه العهد التركي ليس شعرا تلخصت فيه عبقرية الامة وتضافرت على انتاجه جهود الصفوة من مثقفيها لانه شعر فئة واحدة من فئات الشعب هي فئة العلماء . وخلف هذا الوضع الشاذ توجد ظاهرة انعدام اي نوع من التعليم غير التعليم الديني الذي يجعل من المرء عالما ورجل دين ويربطه بنوع من التقاليد لا يرى شعر العاطفة خليقا بمقام العالم ومكانة رجل الدين . ولا يقتصر اثر هذا الوضع على هذه الناحية ، وانما يبرز فيما بعد في صورة اخرى هي هذه المكانة العظيمة التي يوليها السودان للشعر والشعراء دون بقية الفنون الادبية ودون بقية المشتغلين بالادب ، فقد ارتبط الشعر بالطبقات القائدة في المجتمع وصار هواية الاكابر والمتازين الامر الذي يفسر لنا كثرة الشعراء في السودان طوال عهود تاريخه المختلفة.

ولا يقتصر اتجاه التقليد على الشعر ، وانما ينعكس على كل كتابات العهد التركي ، فنلتقي فيها بأثر التقليد والانقياد الى بدع عصور الانقياد والتعامل معها كقمة ومثل اعلى ، ففي الآثار النثرية نلتقي بالوان متفاوتة من السجع والمحسنات اللفظية ، وفي مؤلفات المتصوفة نلتقي بمصطلحات العهد الدينية وخرافاته واساطيره المنسوبة الى النبي كمعجزات . واذا كان للصوفية من فضل او ميزة فان ميزتها الكبرى هي احتفاظها بحريتها أمام اللغة بعكس الفقهاء الذين استسلموا بانقياد تام للاصول القاموسية ، فقد استطاع الصوفي ان يخطىء ويبتكر ويتسلق حائط اللغة ويتكىء على صيغ وتعابير دارجة دون خوف ـ ربما لان وضعه كمتلق للعلم اللدني يحرره من الخوف ويعصمه من ترقب النقد .

جملة القول أن العهد التركي كان عهدا مقلدا وغير اصيل، ولكنه يظل واحدا من اهم عهود التاريخ السوداني . فقد افتتح به الاتصال المباشر بين السودان ومنابع الثقافة العربية ، وعاد السودان يواكب المنطقة العربية ويتأثر بما يجري فيها بعد ان فوتت عليه قرون العزلة فرصة التأثر بالغزو المغولي والغزو الصليبي وعهد المماليك . ومنذ هذا التاريخ يبدأ السودان اتصاله الوثيق بالعالم العربي فيشاركه كل محنه وازماته وانتصاراته ويتعرض معه للغزو التركي والغزو الفرنسي والاحتلال الانجليزي ويشترك في الكفاح ضد الاستعمار وينال استقلاله في تاريخ مقارب لاستقلال معظم البلاد العربية ويعيش معها ازمات فلسطين والجزائر والقنال . ولكن هذا الاتصال الوثيق يتخذ منذ وقت مبكر صورة غريبة وان كانت متوقعة هي صورة التطلع الى مصر ـ ومصر بالذات دون بقية الاقطار العربية .

ان هذه الصلة لها اثرها الحاسم على الفكر السوداني خلال وبعد العهد التركي والى عصرنا الحاضر ، فمنذ ذلك التاريخ تلعب مصر دورا اساسيا في توجيه الفكر السوداني والهامه واحيانا اخرى في خنقه وتبديد طاقات الابداع فيه . وقد فعل تشابه البيئة فعله الحاسم فصارت بعض قضايا السودان تحسم بطريقة غير مباشرة عن طريق الخبرات والمناقشات المصرية بحيث نجد الحل جاهزا متى ما نشأت مشكلة او استحكمت . ونتج عن ذلك ان تابع السودان مصر في التأثر بمختلف المدارس الفكرية وتابعها في خبراتها الكفاحية وتاريخها السياسي بحيث تهيأت لدى اجيال السودانيين نفسية متلقية وغير رائدة تصوب أنظارها دائما الى ادق دقائق الشئون المصرية بتطفل وحب . واثناء تعرضنا للعهود اللاحقة سيتضح لنا الاثر النافع والاثر الضار لهذا الوضع الفريد وسوف نرى اي مكان تحتله مصر في فكرنا وتاريخنا ، وفي دواوين شعرائنا .

***

انتهى العهد التركي نهاية عنيفة على ايدي الثوار المهديين الذين دوخوا الجيوش التركية الانجليزية القيادة في مواقع امتدت عبر اربع سنوات وانتهت بسقوط الخرطوم ومقتل غردون وارتداد حملة الانقاذ. وعلى انقاض التركية بدأ في السودان عهد من الحكم الوطني هو بحق بداية التاريخ السوداني الحديث . فمع ذلك العهد تبدأ في النشوء معظم ظواهر الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية التي تعطي لسودان اليوم قسماته المميزة فوق خريطة الكرة . ومع ذلك العهد ايضا تبدأ في التبلور حصيلة الشعب من خبرات اربعمائة عام جربت البلاد خلالها حكم القبيلة وحكم الدويلة والحكم الاجنبي والتقت بتيارات الحضارة النابعة من البلاد والوافدة عليها من المغرب الاقصى والشرق الاوسط وآسيا الصغرى . واهم من ذلك يفتتح العهد المهدوي طريق الوعي القومي فيدخل على الجماهير السودانية شعورا عاما بالانتماء الى اصل واحد وبالوقوف في صف واحد .

جاء الحكم المهدوي على انقاض التركية فكان ضروريا ان يهدم ويقوض قبل ان يبدع ويشيد . وكان ضروريا لنمو الثقافة المهدوية ان يتم بحرص فائق اقتلاع جميع الجذور التركية من ارض الثقافة السودانية وان يتم القضاء على البدعة والتحريف والخرافة قبل أن يبدأ التوجيه الثقافي الجديد . وقد بذل الثوار اقصى الجهد لتطهير الجو الثقافي من الاثر التركي واحرزوا نجاحا سريعا وكاسحا في معظم الاحوال ، ولكن الامر مع ذلك لم يكن سهلا ولا يسيرا ، فقد تمكنت الثقافة التركية في السودان خلال ستين عاما من السلطة واستطاعت ان تفرض لنفسها ذيوعا ورواجا وان تفرخ انصارا وحملة ومحبين . ومن الناحية الاخرى كان الثوار يجابهون هذه الحضارة الذائعة بأداة ثقافية ضعيفة وناقصة ، فقد كان انصار الثورة في الغالب من الناس البسطاء الذين لم ينالوا حظا يذكر من التعليم ، وكانت ايديهم خلوا من ثقافة تصلح بديلا سريعا للثقافة المهزومة . وكان المثقفون يتخذون موقفا مستخذيا من الثورة ، فمنهم من ضلع مع الاتراك ووضع الرسائل في تكذيب المهدي ومنهم من بقي على نوع مريب من الحياد حتى سقطت الخرطوم فتحول بسرعة غريبة الى الصف المهدوي (٧) . وبالرغم من هذا الوضع غير المتكافىء فقد فعل الثوار كل ما بامكانهم لدحر الحضارة الدخيلة . وقد استطاعوا ان يقدموا انجازات جليلة في ذلك المجال فقبل الاعلان الاول للثورة على حكومة الاتراك كان المهدي قد اعلن الثورة على حضارتهم ومنذ الوهلة الاولى شرع في آلغاء مظاهر تلك الحضارة واستبدالها باشياء من ابتكاره الخاص او الاصول الاسلامية العريقة .

اما الاسلوب الاول : اسلوب الابتكار والتجديد فقد اتخذ صورة محاولة شجاعة لابداع حضارة سودانية تخلف الحضارة الاجنبية المدحورة وتسد الفراغ الذي خلفته . ومن هنا تمتلىء الايام الاولى للمهدية بالابتكارات والاستحداثات على كل نطاق بحيث يصح الزعم بأن عبقرية الشعب تفجرت في تلك الايام بصورة لا نظير لها في عهود التاريخ السوداني اللاحقة . وكان المهدي انسب القادة واكفأهم لقيادة الشعب في عصر من التغير السريع . ومن الصعوبة في مجال محدود كهذا ان نحصر كل ما ابتكره الثائر الملهم ولكن لعل هذه النماذج تكفي للتدليل .

١ ـ كتب المهدي في احد مناشيره داعيا الى نبذ الملابس

(٧) ومع ذلك فقد وقف مع الثورة ـ ومنذ اعلانها الاول ـ صفوة من مثقفي العهد كالشيخ محمد الخير والشيخ العبيد ود بدر والاستاذ المضوي عبد الرحمن والشريف احمد طه واحمد المكاشفي وغيرهم كثير.

والشارات التركية : « فمن لباس أعدائه ـ أي أعداء الله ـ الطربوش والبوري وكل الذي يكون من علاماتهم ولباساتهم فاتركوه » وعوضا عن تلك الازياء المحرمة ابتكر المهدي الزي الوطني المهدوي والذي يتكون من المرقعة المتعددة الالوان : « اتركوا التفاهات وفراوي الريف لان قوت النفوس حياتها والبسوا الجبب والمرقعات » .

٢ ـ وكتب داعيا الى نبذ الالقاب التركية : « فلا تطلبوا العزة بالتسمي بالشيخ والسيد ... فانكم تسمعون ان جميع الانبياء والمرسلين والصحابة والتابعين لم يسم احدهم بالشيخ تعصبا فلا ترغبوا فيما تسمى به الظالمون والترك المعرضون فانهم لا يرضون الا ان يسموهم بالوظائف فلا تتسموا بذلك » . وبدلا من تلك الالقاب جاء العهد المهدوي بلقب انصاري للمواطن العادي وجهدي وراس مية وامير للرتب العسكرية .

٣ ـ وكتب ايضا في منشور موجه الى كتابه وولاته على الاقاليم: « الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله اعلاما منه لجميع كتاب احكام المهدية وانصار الدين : اما بعد فالذي نعلمكم به ان الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز : (واحسنوا ان الله يحب المحسنين) فحيث فهمتم فلا بد من تحسين الخط وتجويفه وعدم تغيير الحروف وقلب معانيها فقد اهلك الله المغيرين فاتركوا خطهم ولا تسلكوا سننهم واظهروا السين في بسم الله الرحمن الرحيم والشين في الشيطان الرجيم واعطوا الحروف حقها كما انزلت وحسب ما عهد فيما سلف وتعليق الكاف والهاء على هذه الهيئة واياكم وكتابة الترك» ـ ومناشير المهدي التي ما زالت موجودة في صورها الاصيلة ومكاتبات الخليفة ووثائقه كلها تفصح عن حقيقة كبيرة هي ان العهد المهدوي افلح في خلق (CALLIGRAPHY) فن خط خاص به ومن المستحيل الفصل بين هذه الحقيقة وبين العناية الزائدة والتفوق المبدع الذي يبديه الفنانون السودانيون المعاصرون في مجال الخط العربي .

ولم تقف دعوة المهدي الى حضارة جديدة عند هذا الحد بل تجاوزته الى عشرات من شئون الحياة فاحدثت فيها ثورة وتغييرا . وكان الثائر الاول مهتما غاية الاهتمام وجادا غاية الجد في محاولته ابداع حضارة سودانية اصيلة متحررة من التقليد والتاثير التركي . ومع ان موت المهدي المبكر قد ساهم في اضعاف هذه الحركة ان تؤتي أكلها الا انها بقيت في مكان ما من العقل السوداني واليها يمكننا ان نعزو حركة القومية السودانية على ايدي جيل اليقظة وجيل الوعي .

اما الاسلوب الثاني : اسلوب العودة الى الاصول الاسلامية الاصيلة فقد اتخذ صورة متشددة من صور الرفض لكل ما هو دخيل ومحرف ومبتدع مستعيضا عن ذلك بالاصول ومبشرا بنوع من العودة الى المصادر الاسلامية شبيه بدعوة الوهابية في الحجاز . روي عن عبد الصمد حاج شرفي قوله « الحاج مرزوق رجل شايقي عالم كان قابل المهدي في قدير وساله مرة قائلا معلوم ان المذاهب هي اربعة الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي فما هو مذهب المهدي فقال له هؤلاء الائمة جزاهم الله قد درجوا الناس واوصلوهم الينا كمثل الراوية وصلت الماء من منهل الى منهل حتى وصلت صاحبها للبحر فجزاهم الله خيرا . فهم رجال ونحن رجال ولو ادركونا لاتبعونا وان مذهبنا هو الكتاب والسنة والتوكل على الله وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأي المشايخ » . ولم يقف الامر عند هذا الحد بل بدأ المهدي سعيه الجريء نحو توحيد المذاهب الاربعة في مذهب واحد باختيار الاصلح من كل منها معتمدا في ذلك على الكتاب والسنة ومتحررا من اي عنصر من عناصر الاستخذاء والتضاؤل التي تثيرها الاسماء الكبيرة والتقاليد العريقة عملا بقوله «هم رجال ونحن رجال» وبهذه النظرة الواثقة يفتتح العهد المهدوي صفحة ناصعة في تاريخ التلقي المباشر عن الاصول ، فان كان عهد الفونج قد اكتفى بالقشور الثقافية واذا كان العهد التركي قد تعامل مع ثقافة عصور الانحطاط كقمة وانموذج فان العهد المهدوي يتميز برفضه للامرين معا وبمحاولته الوصول مباشرة الى منابع الثقافة الاسلامية العربية . ومن تأكيد المهدي على مسألة الكتاب والسنة ومن محاولات المثقفين في عصره للتعامل مع ادب العربية العريق نجد البداية الاولى لعصر التلقي من الاصول بلا وسيط . ان احراق المهدي للكتب ـ ميقيا على القرآن الكريم وبضعة كتب معدودة ـ لم يكن اعلانا عن عدائه للعلم والمعرفة وانما كان احراقا لعهد كامل من البدع والزخارف والاباطيل الثقافية. ولولا ان عهد الخليفة التعايشي اتسم باضطهاد الثقافة والمثقفين لكانت هذه النزعة تكاملت واثمرت بسرعة اكبر ودون انتظار للبعث القومي الذي انتظم العالم العربي عشية الاحتلال الاوروبي .

لقد ورث العهد المهدوي ثقافة تركية دخيلة وكان يتعامل مع رجال تشبعوا بتلك الثقافة وولدوا ونشأوا في ظلها فلم يكن ممكنا تحويلهم بين ليلة واخرى الى دعاة للمهدية والقومية السودانية خاصة وان معظمهم دخلوا في طاعة المهدي لا عن رغبة وانما خوفا وتقية . ولكن الروح القومي الذي ساد ذلك العهد كان له اثره غير المباشر على مثقفي العهد التركي الذين عاصروا المهدية فنجد الصوفية قد وقفت عن النمو وتقلص نفوذها وانحصر في جيوب صغيرة وسرية . كذلك تحرر الفقه من روح الجدل والمغالطات كما بدأ الشعر والنثر يتحرران من تأثير الزركشة التركية . فاما النثر فقد وضع المهدي فيه اللبنات الاولى حين اصدر مناشيره ورسائله الخالية من آثار السجع والبهرج اللفظي(٨) في وقت كان فيه هذا النوع من الحرية منقصة على الناثر وضعفا في مقدرته الفنية على طول البلاد العربية وعرضها . واما الشعر فقد اضطر الى هجر مواقعه القديمة وتخفف من اثقاله الباهظة ليدخل مع الشعب في ثورته جنبا الى جنب مع الشعر الشعبي الذي استطاع ان يحقق طفرات عظيمة .

هذه القصيدة للاستاذ محمد الطاهر الجذوب في وصف معركة بين الامير المهدوي عثمان دقنة والجيوش التركية في شرق السودان وفيها يتجلى ـ برغم كل شيء ـ نوع من السهولة وعدم التكلف المفقودين في اشعار العهد التركي مما يجعلها بذاتها ظاهرة جديدة :

هندوب تعرف صبرنا ... كيف اتجهنا للمصاعب
وهشيم تشهد عزمنا ... كيف ادرعنا للمصاعب
يا طالما صدنا بها ... صيد الغضنفر للثعالب
جيشا يرن سلاحه ... كالمزن اذا ما المزن صائب
وسواكن تدري بنا ... انا لدى الهيجا نضارب
بالمشرقي كأنه ... وقع الصواعق في المضارب

---

(٨) يقول الدكتور عبد المجيد عابدين في مؤلفه القيم (تاريخ الثقافة العربية في السودان) ما نصه :

« وقد لقي هذا الاسلوب البديعي الديني معا رواجا في عهد المهدية على يد المهدي نفسه . على ان مناشير المهدي ورسائله ليست كلها في درجة واحدة من الاجادة بل هنالك عدد منها كان يرسله الى اتباعه للعظة والهداية تجلت فيها العناية بالسجع والاقتباس والجناس» ثم يستطرد الدكتور الفاضل ممثلا لما يقول بفقرات من عبارات المهدي:

« والدكتور عابدين مع علمه وفضله وعلو كعبه المشهود به في البحث لا يعطينا هنا عبارة محددة ففي الجملة الاولى يزعم ان المهدي نفسه روج للاسلوب البديعي وفي الثانية يقول ان ذلك الاسلوب يتجلى في (عدد) من كتاباته فحسب . وقد يختار المرء اي القولين يأخذ ولكنه من المؤكد ان القول الاول ينطوي على ظلم كبير للمهدي قد يكون سببه الاكتفاء بالاطلاع على الراتب وحده دون بقية الآثار . ولكن القراءة المتمعنة لكل آثار المهدي تكشف عن مجانبة هذا الرأي للتوفيق وجميع الامثلة الواردة من كتابات المهدي في هذا المقال تؤكد تلك الحقيقة اذ انه لم يلجأ الى الاسلوب « البديعي » الا نادرا ولدى الضرورة . واما عن عهد المهدي عامة فمن الصعب ايضا اطلاق قول كهذا اذ ان غالبية الآثار التي تركها ذلك العهد خالية تماما من الاسلوب « البديعي » .

زمنا رصدنا نحوها ... نبدي العجائب والغرائب
ونئز في ارجائها ... كالليث اذ نشب المخالب
ولطالما برزت لنا ... منها العساكر والكتائب
من كل فج يمنة ... بل يسرة من كل جانب
فتجاذبتهم خيلنا ... ترمي بهم رمي الشواقب
البيض تلعب فيهم ... فوق العمائم والعصائب
حتى اتت اخبارنا ... من مصر تكذبها الجوائب

(نفثات اليراع – ص ٩٣)

ولكن الانتصار الحقيقي الذي احرزه المهدويون في هذا الميدان يتمثل في شخص الشاعر عمر عبد الله البنا الذي استطاع ان يتمثل المرحلة بطريقته الساذجة ويتغنى بها في ديوان كامل ينبض من اوله الى آخره بدفق حماسي هادر وسلس . وكالعادة نستشهد بقصيدته الشهيرة :

الحرب صبر واللقاء ثبات ... والموت في شأن الاله حياة
والجبن عار والشجاعة هيبة ... للمرء ما اقترنت بها العزمات
والصبر عند البأس مكرمة ... ومقدام الرجال تهابه الوقعات

. . . .

قد حاز هذا الافتخار جميعه ... صحب الامام السادة القادات
قوم اذا حمي الوطيس رأيتهم ... شم الجبال وللضعيف حماة
ولباسهم زرد الحديد وبأسهم ... شهدت به يوم اللقا الغزوات

. . . .

يا ايها الانصار أن صنيعكم ... شكر الاله له وتلك هبات
اعليتم دين الاله وما بكم ... الا الثبات تزينه الوثبات
وشرحتم صدر الرسول محمد ... بالفتح فانكشفت به ظلمات
وسقيتم الاعداء كأس منية ... عبراتها ما مثلها عبرات
فالفخر فخركم وفخر سواكم ... محض ادعاء ما له اثبات

فهذا الشعر – بالمقارنة مع اشعار العهد التركي – يبدو فريدا في طواعيته وسهولته واقترابه من مستوى الفهم الشعبي . وقد استطاع هذا الشاعر أن يضع لاشعاره الوطنية سيرورة فريدة من بلد غير متعلم وعلى جهل تام بقواعد اللغة العربية والشعر العربي وفي عهد كان فيه الشعراء الشعبيون – أمثال الشيخ محمد التويم وابو شريعة – يخاطبون وجدان الجماهير الثائرة باللهجة المحلية المشحونة بتيارات عاطفية اكبر والصق بالوجدان الشعبي .

وعلى كل فان العهد المهدوي يمثل فاتحة فريدة للتاريخ السوداني الحديث . ولكن المؤسف انه يبدو مبتورا في كل المجالات ، فقد كان موت المهدي الباكر ضربة قاصمة على الثقافة السودانية اوقفت تطورها وعاقت نموها بطريقة مفاجئة ، وعلى عكسه كان خليفته قد اقحم نفسه في منازعات سياسية مع قبائل النهر التي ينتمي أليها معظم المثقفين في السودان وتحول الى رجل متربص كثير الشكوك وعلى يديه تم اضطهاد المثقفين والعلماء السودانيين وحبسهم وجلدهم وتشريدهم وتضييق ارزاقهم مما جعل من مدة حكمه عهدا مظلما من الناحية الفكرية وسارع بنهايته الفاجعة على أيدي قوات الاحتلال الانجليزي .

***

ان هذه العهود الثلاثة قد اسهمت بدورها الحاسم في صياغة الفكر السوداني وتشكيله وتقرير اتجاهاته ، وسوف يظل تأثيرها واضحا وملموسا مهما اتسعت المسافة الزمنية بينها وبين اجيال السودانيين، فما زال جيلنا الحاضر يعاني من التأثير الصوفي الذي جاء مع عهد الفونج ومن الحساسية تجاه اللغة وظاهرة التطلع الى مصر كأثرين من آثار العهد التركي ويتشوق مع ذلك الى ابداع فكره الخاص جريا على سنن المهدية . وسواء قدر لهذه الآثار ان تختفي ذات يوم او تظل على نفس مستوى قوتها الحالي فانه يظل حقيقة واقعة ان سودانيي الفترة ما بين ١٨٨٠ الى الآن تأثروا ويتأثرون بتلك الاصول الاصيلة للفكر السوداني . والدراسة الموسعة لهذه الحقبة الاخيرة كفيلة بأن تكشف لنا عن مدى ذلك التأثر وأبعاده وخاصياته ومزاياه .

الخرطوم

محمد المكي ابراهيم

هكذا انتصر « الفيتكونغ »

بقلم

ريمون نشاطي

« فقد « الفيتكونغ » منذ ان دخل في حرب المواجهة المباشرة مع اميركا ما يقرب من نصف مليون مقاتل ، خلاف الجرحى والاسرى ولا سيما الذين تلفت اعصابهم وانهال عليهم اليأس .. ورغم ذلك ، صمدت الجبهة ، وواصلت الكفاح بعزم أكبر ، وبقدرة دفاعية أقوى حتى استطاعت أن توجه ضرباتها المتتالية في قلب العاصمة سايغون التي تنتظر الآن هجوما كاسحا عليها ...

« لقد استطاعت الجبهة ان تقود كفاح الجماهير الشعبية وأن تصمد ببطولة امام اكبر واقوى دولة في العالم .. وقد اقتنع العالم كله بشرعيتها ولم يبق الآن سوى الاعتراف بها رسميا ، ومن جانب الولايات المتحدة اولا .. وهكذا انتصر الفيتكونغ » .

كتاب نحتاج اليه الآن ، لانه يحمل لنا دروسا كثيرة في نضالنا وكفاحنا لاسترداد ارضنا المسلوبة ..

صدر حديثا ... ٢٥٠ ق٠ ل